قصص الجارم بك

للأستاذ على النجدى ناصف

مدرس بدار العلوم

نلاحظ مغتبطين أن الأستاذ الجارم بك قد نشط للتأليف الأدبى منذ أحيل على المعاش ، وتخلص من أثقال الوظيفة .. وهذه سنة حسنة ، يحمد عليها ، ويحق أن يكون قدوة فيها ، فالعمل لخير الناس والوطن ضريبة على كل قادر ، لايجوز منعها ولا الترخص فى أدائها ، مهما تكن المرحلة التى يمر بها الإنسان من مراحل العمر .

ومؤلفات الجارم بك فى هذه الفترة قصص كلها أو تكاد . ولا بأس أن يشارك الجارم بك فى أدب القصة ، بل ربما كان من الخير أن يفعل ، ولكنا لانرى أن تكون القصة ميدانه الوحيد ، ولا ميدانه المفضل ، فالقصة فى أحسن حالاتها لون من الأدب الخفيف ، لاتكلف قارئها شيئا من إجهاد الفكر ولا شيئا من المطاولة والصبر . وهى لذلك لاتجعل منه باحثا جلدا ، ولا دارسا متعمقا ، أيا مايكن نوعها .

واليوم يعنى الكتاب ودور النشر بالأدب الخفيف ، ويكثرون منه ، فما تراه فى الصحف والمجلات فقط ، ولكن فى الكتب والرسائل أيضا ، وآثره الشباب على سواه ، حتى أوشك أن يكون مادة ثقافته وزاد عقله . فما نفع الزيادة فيه ، والحاجة فى الحقيقة ليست إليه ، ولكن إلى أدب الدراسة والبحث والتحقيق ؟

ولقد يجد الكاتب الناشيء أو الكاتب المغمور شفاعة يقدمها ، أو عذرا يدلى به ، إذا هو التزم فى آثاره مجاراة الجمهور ، واسترضاء ذوقه ، فأما أعلام الكتاب فهيهات . فالجمهور أمانة فى أعناقهم ، وهو فيما يقال كالطفل : لا يعرف الخالص من المشوب ، وهم برسوخ قدمهم ، واتساع شهرتهم حقيقون أن يحملوه على تقبل مايخرجون له من آثار . فالأشبه بهم ، بل الواجب عليهم أن يعلوه ويوجهوه ، لا أن يستغلوه ويدللوه .

وفى قصص الجارم بك وصف كاشف لأجساد النساء ، وأحاديث صريحة عن الغزل وأعمال التصابى والفتنة ، من مثل قوله فى قصة شاعر ملك : « نستقى من رضاب الشفاه ، ونقضم تفاح الخدود ورمان النهود ... » وقوله فى قصة الشاعر الطموح : « .. بين غمزة ساحرة وبسمة فاتنة ، وانثناء لعطف ، واهتزاز لنهد ، وقبلات ترسل بالأكف ... » وقوله فى قصة فارس بنى حمدان : « فوثب يقبلنى فى اغتلام وخشونة . »

وأبطاله فى الهوى سواء ، مامنهم إلا عاشق أو معشوق ، فسيدة القصور وباسمة تعشقان عمارة بن زيدان ، لكن عمارة يعشق سيدة القصور ، ويعرض عن باسمة ، فتكيد له ، وتؤلب عليه بالفتنة والاستهواء . ونجلاء ورملة تعشقان أبا فراس ، لكن أبا فراس يعشق نجلاء ، ويعرض عن رملة ، ويزاحم قرعويه أبا فراس فى نجلاء ، فتعرض عنه ، فيكون الكيد لها ولأبى فراس أيضا بالفتنة والاستهواء ، وهكذا كأن لم يكن لهولاء الناس من عمل إلا اتباع الشهوات ، وتدبير المكايد لمنافسيهم والممتنعين عليهم .

فالجارم بك على مايظهر من هذا كله يرى أن تكون القصة العربية تبعا للقصة الغربية ، تحدث مثلها عن تجاذب الجنس ونزوات الشباب ، فإن يكن ذلك قصر للغرب ، وموافقة على آثامه . ولو كان صاحب هذا الرأى من أذنابنا أو دعاة الغرب فينا لهان خطبه ، ولم يعز العزاء فيه .

ورأيى أن نربأ بأدبنا عن هذه الحماقات ، وندع الغرب وشأنه فيها ؛ فلنا تقاليدنا ، وله تقاليده والمنطق معنا لا معه ، فهو يوجب على من ينكر الفكرة

قولا ملفوظا ، أن ينكرها كذلك على الأقل فنا معروضا . على أن الأمر أخطر من ذلك وأعمق أثرا ، لأنه يمس كياننا الاجتماعى فى الصميم . فلا ريب أن عرض هذه الحماقات على الشباب ، مما يوهن تماسكه ، ويذهب باطمئنانه وثقته ، ويزين له التحلل والانطلاق ، وكفى بذلك ضياعا ، وإن لنا فى الحرب الأخيرة لعبرة .

فالذين لا يأبون إلا الأخذ على هذه الخطة إنما يأبون من حيث يعلمون أو لا يعلمون إلا الإساءة إلى الوطن فى شبابه ، والنيل منه فى مجتمعه وكيانه متابعة لما يخيله لهم الوهم والتقليد أنه نمط القصة الحديث ، ونهجها القويم . والحق أن القصة لا تصور الواقع فقط ، ولكن تصور كذلك انماطا من الحياة الفاضلة ، كما تتمثل للكاتب المقتدر فى عالم السمو والكمال . ويطيب لى فى هذا المقام أن أشيد بنهج الأستاذ سعيد العريان فى قصته على باب زويلة ، فقد جردها جملة من أحاديث الغواية والفتنة ، ومع ذلك لا يحس القارىء الجاد أن قد فاته فيها شىء من خصائص القصة الشائقة . ومهما يكن من شىء فواجبنا الذى لا هوادة فيه أن يكون التصون شعارنا فى الأدب ، ولو خسرنا به القصة ، فان لنا فى سواها غناء وعوضا ، أما الشباب فماذا عسى أن يكون لنا فى سواه من غناء وعوض ؟

وسمة العشق فى قصص الجارم بك الغرابة والشذوذ . فكله خاطف لا يعرف الاناة ، متمرد لا يخضع لطبائع النفوس ، عارم لا يبالى بالحدود ولا بالقيود . فسيدة القصور على سعة حيلتها ، وشرف حسبها ، وخطر شطر شأنها فى الدولة — تهيم بعمارة بن زيدان حين تراه ، ولا يخفى ذلك عليه ، فيثب إليها يقبل يديها ، ولا يزال يرتفع بقبلاته حتى يبلغ المعصمين . ورملة أخت سيف الدولة لا تكاد ترى أبا فراس حتى يطير لبها ، كلفا به ، وانجذابا اليه ، ولا يسعها إلا أن تحتال له ، حتى (تستثير نوازعه ، وتوقد مراجله) . وهكذا

أما الأسلوب فتشيع فيه التراكيب الشعرية ، والقوالب المأثورة ، من مثل أما تكفى لاطفائه دموعى وهن غزار ؟ سمعنا شعرك فى سجع الحمائم ، وشربناه

فى كئوس المدام . أنفا لا ترى فيه عوجا ولا أمتا . : عينين تعلمان هاروت السحر . ويستوقف نظرنا من الأسلوب بعد ذلك :

١ — قوله فى قصة فارس بنى حمدان : تعرفين يا أماه ما كان إلخ ، فهاء السكت لا تزاد فى الوصل إلا على ضرب من التحمل لا موجب له ، ولا نفع فى تكلفه .

٢ — وقوله على لسان أبى فراس إذ يحدث سيف الدولة عن المتنبى : ولأنهم يظنون أن ثلبه وتمريغه فى التراب قد يغضب مولاهم . وخطاب الملوك بأمثال هذه التعابير غير مألوف فى جميع العصور ، ولا سيما إذا كان للقائل مثل ما كان لأبى فراس من النشأة والمنزلة .

٣ وقوله عن بنت رشدين : لا تحتجب عن الرجال إلى بخمار رقيق أسود ، تلفه حول وجهها ، فيبرز كالبدر فى مختلك الظلام . فالبدر ومختلك الظلام لا يلتقيان إلا حين يبتلى البدر بالخسوف .

٤ — وقوله عن سيدة القصور : هى جميلة كلها ، فاذا أخذتها قطعة قطعة فانه يخطر بالبال معنى التقطيع وتناول الأشلاء من امرأة قتيل .

٥ — وقوله : وصعب النساء إلى مياسرة كما يقول أبو نواس، فالمعروف أنه من كلام بشار ، ويروية الأغانى له مع صلته هكذا :

لا يؤيسنك من مخبأة قول تغلظه وإن جرحا
عسر النساء الى مياسرة والصعب يمكن بعد ما جمحا

على النجدى ناصف
مدرس بدار العلوم